المديح النبوي في شعر علي أحمد باكثير
قصيدة نظام البردة نموزجا

وسيم حسن راجا[١٥]

المدح غرض من أغراض الشعر في كل عهد من العهود، وتحول المدح إلى المديح بعدما بدأ الشعراء يمدحون الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فالمديح النبوي موضوع من موضوعات الشعر قديمة وما حسان وكعب والأعشى والفرزدق إلا نماذج صفوة في العهد الأول لهذا النوع من الشعر، وقد مدح الله تعالى رسوله وليس فوق مدحه مدح، وأما مدح المسلمين وغيرهم للرسول الكريم في كل زمان فحدث عن البحر ولا حرج، ولا يدل هذه الكثرة الكاثرة من الشعر في المديح في كل عهد من عهود التاريخ إلا على تعبير الشعراء عن حبهم وتقديرهم للرسول.

والمديح النبوي عبارة عن الشعر الذي لا يهتم إلا بمدح رسول الله صلى الله وسلم ويتحدث الشاعر في هذا النوع من الشعر عن صفاته الخلُقية ووالخلقية، يظهر شوقه لرؤيته وزيارته أو زيارة قبره في مسجده بمدينته، وكذلك الأماكن المقدسة التي ترتبط بحياته، ويذكر معجزاته المادية والمعنوية، ويشيد بغزواته وبسيرته الطيبة الطاهرة. فلم يدخل عصر من العصور ولا زمن من الأزمنة، ولا أمة من أمم الإسلام ولا شعب من شعوب المسلمين إلا وكان هناك شعراء كثيرون مدحوا رسول الله.

وشخصية "على أحمد باكثير"نابغ من الشخصيات التي لا تجود بها الزمان إلا نادرا. ويعد من الأدباء القليلين الذين أسهموا في مجال الشعر بالإضافة إلى مجالات الأدب والفنون الأخري.وذاع صيته في العالم الإسلامي بفضل قصيدته"نظام البردة"وقد خصص باكثير هذه القصيدة لمدح النبي عليه الصلاة والسلام.وتدل هذه القصيدة على حبه الغامر للنبي صلى الله عليه وسلم،وبرزت فيها عواطفه

[١٥] :الباحث الدكتوراه في قسم اللغة العربية وأدابها بالجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا اوتي بورة كشمير

الجياشة بالعشق النبوي عليه السلام. وكتب الشاعر قصيدته هذه الطويلة "نظام البردة أو ذكرى محمد" سنة ١٩٣٢م بعد أداء مناسك الحج وقبل ذهابه إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول في أوائل شهر رجب المرجب. وقد نظم باكثير هذه القصيدة المدحية على نموذج ميمية أحمد شوقي بعد أن تأثر به. وقد يتجلى هذا من عنوان القصيدة. وكذالك حذى باكثير فيها حذو البوصيري (رح) وكرس باكثير هذه القصيدة إلى روح والده قائلا:

"إلى روح والدي الكريم، الذي لحق بربه في جوار نبيه إن شاء الله من الفردوس الأعلى. أهدى هذه الذكرى، راجيا أن يقدمها بين يدي محمد، فهو في إحسانه وتقواه، ورطابة لسانه بذكر الله أحق بتقديمها مني."(١)

لم يقلد الشاعر في بداية القصيدة أحد ممن مدحوا رسول الله من الشعراء الذين بكوا على الأطلال أو الديار أو نأى جيران بذى سلم أو ممن ابتدأوا قصيدتهم من النسيب بل جاء بمطلع خاص، إنه مطلع نفسي يعبر عن ذات صاحبه ومشاعره وأحاسيسه مثلا:

في ليلة من ليالي الفرّ حالكة
صخابة بصدى الأرياح والديم
دعى تتالى كأمواج المحيط بها
عقلي وقلبي وطرفي كل ذلك عمى
أكاد أرتاب في نفسي فأنكرها
لولا مسيسي جسمي غير متّهم(٢)

وتكلم الشاعر في أربعة وثلاثين بيتا من قصيدته عن عواطف نفسه وأحاسيسه ومشاعره نحو الإسلام والعروبة مصوّرا وطنه الصغير(حضر موت) حيث شاعت الخرافات والبدع والجهل تصويرا واضحا ومن هذه الأبيات:

يا ويح قلب بجنبي لا هدوء له
يجيش بالهمّ كالبركان بالحمم!
يانّ من ثقل الآمال تيظه!
إنّ الهموم رسالات من الهمم!
وأرجح الطرف في (الأحقاف)غارقة
في الجهل فوضى بلا عدل ولا نظم
تفتّلت في الجهل ملاذ العيش تاركة
ما تقتضيه، فلم تفطر ولم تصم(٣)

وهكذا أشار باكثير هنالك في عدد من أبيات القصيدة إلى تلك الزوجة المحبوبة التي توفيت في حضرموت في غضارة الشباب وتضارة الصبا وتأثر بها حتى نظم لها عددا من القصائد وكتب عددا